OPEN ACCESS
Journal of Semitic Religions
ISSN (Print): 2958-7514
ISSN (Online): 2958-7522
https://jsrpk.com/index.php/Journal

الانصياع للمرأة في شعر عربي
(دراسة تحليلية تاريخية)

Compliance to women in Arabic Poetry: An Analytical & Historical Study

Baraa Khaled Hilal
PhD Scholar, International Islamic University, Islamabad**.**

Abstract

Poetry has been the scale of virtues and vices throughout Arab history. It preserves customs, establishes culture, and social values. While moral values are not always clearly defined, poetry has managed to maintain the boundaries of concepts such as manhood, dignity, and respect for oneself and one's position in society. Throughout various epochs, Arabic poetry has ridiculed the weak man who succumbs to the words of women, often employing harsh language and coarse descriptions, reflecting the decline of the traditional image of masculinity. Examining pre-Islamic poetry, the poetry of the early Islamic era, as well as that of the Umayyad and Abbasid periods, we find that the Arab psyche has remained consistent regarding those who heed their wives' opinions. Even if the advice is wise, it is frowned upon, provoking the man in terms of his pride and stature.

Below are examples from each era of the flourishing Arab literature that addressed this issue, following a historical approach.

Keywords: Arabic Poetry. Women, Old Arabic Poetry, Analytical & Historical Study

مقدمة:

كان الشـعرُ ميزانَ الفضـائل والرذائل عبر التاريخ العربي الطويل، فهو الذي يحفظ الأعراف ويرسـيها، ويؤسـس للثقافة والقيم المجتمعية. ومن ذلك قول أبي تمّام {من الطويل}[1]:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعرُ ما دَرَى بغاةُ النَّدى منْ أينَ تُؤتى المكارمُ

وإن كانت القيم المعنوية لا تُرسـم، ولا تقيَّد بمعاييرَ ثابتة، لكن الشِّـعر اسـتطاع أن يحفظ حدودَ مفاهيمِ الرجولةِ والوقارِ والقوَامة، ومعاييرَ تقديرِ الرَّجل لنفسِـه واحترامِه لمكانته في المجتمع. سـخر الشـعر العربي عبر عصـوره المختلفة من الرجل الرَّخوِ الذي ينصاعُ لكلام النساء، وغالباً ما اتخذ هجاء هذا الصنف من الرجال منحى يتسم بالعبارات القاسية والتوصيف البذيء، تعبيراً عن انتكاس الصورة التقليدية للرجولة. وفي مثل ذلك يقول طُفَيلٌ الغنويّ{من البسيط}[2]:

CC BY

إن النِّساءَ كَأَشجَارٍ نَبتنَ معَاً منها المرارُ وبعضُ المرَّ مأكولُ
إن النِّســـاء متى يَنهَيْن عن خُلُقٍ فـإنَّـهُ واجِـبٌ لا بُـــــدَّ مَفعُولُ
لا يَنْثَنَيْنِ لِرُشـــدٍ إن مُنِيْنَ لـــــه وهُنَّ بعـدُ مَلُومَـــــاتٌ مَخَـاذِيـلُ

وإننا باستقراء الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام وشعر العصر الأموي والعباسي، نجد أن النفسية العربية لم تتغير تجاه من يصغي لامرأته، حتى وإن تحلّت بخلق عفيف وجاءت برأي حصيف، فالشعر يشنع عليه هذا الرضوخ ويستفزه فيما يفتخر به الرجل من كرامَة وقوامَة، حالَ المثل العربي الشـــهير: "مَا أَمْرُ العَذْرَاءِ فِي نَوَى القَوْمِ؟!"[3] في التحذير من مشاورة النساء أو الاستماع لهنَّ.

ورغم مافي هذا الموضوع من طرافة على ظاهره، فإن المؤرخين الذين درسوا أسباب سقوط الدول، اهتموا كثيراً بموضوع تدخل الزوجات والمحضيّات في شؤون الحكم، وحمّلوا هذا الجانب مسؤولية كبيرة تجاه تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية التي تؤول بالدول إلى السقوط في نهاية المطاف. في هذا المبحث سأتتبع شواهد من الشعر والقصص العربي على رجال يطأطئون لنسائهم، وكيف باتت عليهم على الصفة سُبَّة الدهر، وقد وزعتها على كل عصر من عصور الأدب العربي الزاهر بدءاً من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي المتآخر. وسأتناول هذه القضية، متبعاً المنهج التاريخي.

هجاء ملازمة الزوجة في شعر الصعاليك:

هذا عصـــر الصـــعاليك.. عصـــرُ رجالٍ ثاروا على كلِّ أعراف المجتمع ونُظُمه، واتخذوا من الكهوف منازلاً، ومن حجارة الصـحراء فَرْشَـاً ومُضـطجعاً، ولم ينظروا لبيت الزوجية تلك النظرة القدسـيّة التي أولاها عقلاء الأمم لها، لا بل أكثروا في أشعارهم من التقريع على كل حِلسِ منزلِه، لا يكادُ يفارقه، حتى يضطرَّ لكثرة مخالطة النساء والجواري، وحذروا من ذلك أيما تحذير، و هذا علقمة بن عبدة المعروف بعلقمة الفحل، يصم النسـاء جميعاً بقلة الوفاء ويحذر من الثقة بهن فيقول {من الطويل}[4]:

فإن تسـألُوني بالنسـاءِ فإنّني بصـيرٌ بأدواءِ النسـاءِ طبيبُ
إذا شـــابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فـليس لـهُ في وُدِّهِـنّ نصـــيـبُ
يُرِدْنَ ثراءَ المـالِ حيـثُ علـمنَـهُ وشـــرخُ الشـــبابِ عندَهُنّ عجيبُ

ومن كانت هذه صفته فأحرى أن لايُتبّع، يقولُ لسان حال علقمة. أما التقريع الفظُّ على من يسمع كلام امرأته أو يشاورها فإنَّ أغلظ من ساقه في الشعر الجاهلي، هو الشنفرى في لاميّته، لاميّة العرب الشهيرة، حيث قال في وصفِ الخوَّار أمام زوجته{من الطويل}[5]:

وَلَا جُبَّأ أكهى مُرِبٍّ بعرسِهِ يشاورها في شأنه كَيفَ

وَلَا خرقٍ هيقٍ كأنَّ فُؤَاده يفعلُ[6]

وَلَا خَالفٍ داريّة متغزّلٍ يظل بِهِ المكَّاء يَعْلُو ويسفلُ[7]

يروحُ وَيَغْدُو داهناً يتكحّلُ[8]

أوصاف شنيعة رمى بها الشنفرى الرجلَ الذي يستمع لكلام امرأته فهو (جُبّأ) أي جبان و(أكهى) أي فاقد الأخلاق بليد لاخير يرتجى منه، ويظهر الشنفرى سبب هذا النعوت بقول (مُرِبّ بعِرسِه) أي ملازم لزوجته مقيم بين يديها، لا ينطلق إلى ما تسعى إليه الرجال من الكسب والتماس الرزق، لا بل ويقف أمامها منعدم الرأي والمشورة يسألها لتعلّمَهُ كيف يدير نفسَه. الشاعر يقول بلسان حاله أن الصعلوك الذي يسكن بين جنبيه ليس كذلك، فهو ينفي عن نفسه الجُبن والكسَل وسوءَ الخلق، كما يأبى أن يكون معدوم الشخصية أمامَ امرأة حتى لو كانت امرأتَهُ، فهو كما يصف نفسه في البيت التالي ليس بـ (خرِق) شديد الخوف والحياء كـ (الهيْق) أي ذكَر النعام الذي يدسُّ رأسه بالرمل حين يحزبه خطر، بينما يتعلق فؤاده في جناحي طائر لشدة الجزع. ويزيد الشنفرى في توضيح أوصاف هذا الرجل فيصفه بالخالف، الذي رضي أن يكون مع القواعد من النساء، لا خير فيه، ووصفه بالداريّة، وهو الرجل الذي يقيم بداره لا يبرحها، وهذا عيب في أعراف العرب، لأن المقيم في بيته لا عمل له إلا التغزّل بالنساء والتكحّل والتطيّب كالجواري.

التوازن بمشاورة النساء في صدر الإسلام:

لم ينهَ الإسلامُ نهياً قاطعاً عن مشاورة الزوجة في شؤون الحياة، بل جعل ذلك واجباً في أحوال شتى ومنها الخِطبة والزواج، ولكن الإسلام وافق أعراف العرب ضمناً، ومن ذلك ما ذمَّه الشنفرى في ملازمة الرجالِ البيوتَ، حيث جاء القرآن بنسبة البيت للمرأة مطلقاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[9]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[10]، وقوله تعالى في أول آية من سورة الطلاق ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾[11]، فنَسبَ البيتَ للنساء مطلقاً، أما مشاورة النساء فلم تكن عادة مألوفة لتضارب مصالح النساء، حيث كان الأشيع أن يتزوج الرجل مثنى وثلاث ورباع، ولو ذهب إلى خيار المشاورة لما أقدم على عزيمة، حتى قال سيدنا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: " خَصْلَتَانِ مِنْ عَلامِةَ الْجَهْلِ: مُشَاوَرَةُ النِّسَاءِ، وَاسْتِكْتَامُ السِّرِّ لِلنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ "[12]، وهذا المعنى ورد في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تهاجى مع أبي سفيان بن حرب، الذي أسلم لاحقاً وحسن إسلامه رضي الله عنه {من الوافر}[13]:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عنّي فأنتَ مجوَّفٌ نخبٌ هواءُ

وأنَّ سيوفَنا تركتْك عبداً وعبدُ الدَّارِ سادُتها الإماءُ

كَـأنّ سَـــبِيئَــةً مِنْ بَيْـتِ رَأسٍ   تُـعـفـيِّـهـا الرّوَامِسُ والسّـــمَــاءُ

في البيت الثاني يؤكد سـيدنا حسّـان هذا المعنى العُرفي الذي كانت تعتنقه الناس ضـمناً وهو أن البيوتَ للنسـاء والإماء، وإذا نزل الرجال فيها ولازموها تطبَّعوا بطِباع أهلها، في قوله (وعبدُ الدارِ سادتُها الإماءُ).

العُرفُ في صـدر الإسـلام كان لايزال يرفض أن يكثر الرجل القيام في رحله مع زوجته، ومن ذلك أن عبدالله بن أبي بكر – رضي الله عنهما — حين تزوَّج من عاتكة بنت زيد العدويّة، الصحابيّة المهاجرة، وكانت حسناء جميلة ذات خلْقٍ بارعٍ[14]، أحبَّها حبًّا شديدًا حتى غَلبتْ عليه نفسَه، وشغلتْه عن مَغازيه، فأمَرَه أبوه بطلاقها[15]، فأخذ يُردِّد {من الطويل}[16]:

يَقُولُونَ طَلِّقْهَا وَخَيِّمْ مَكَانَهَا   مُقِيمًـا تُمَنِّي النَّفْسَ أَحْلامَ
وَإِنَّ فِرَاقِي أَهْـلَ بَيْـتٍ جَمِيعَهُمْ   نَائِـــــــــــــــــــــمِ
أَرَانِي وَأَهْلِي كَـالْعُجُولِ تَرَوَّحَـتْ   عَلَى كَثْرَةٍ مِنِّي لَإِحْـدَى العَظَـائِمِ
إِلَى بَوِّهَا[17] قَبْلَ العِشَـــارِ الرَّوَائِمِ

ورغم أن الصدِّيق سمحَ له أن يراجِعَها بعد حينٍ، لكنّنا نستطيع أن نستشفّ مقدار الحرج الذي كان يقع فيه المرء إن رأى أحد بنيهِ يقع في هذا الحال. ولكن لأن مشورة الرجل لزوجته تأتي في إطار المباح؛ والشعر في صـدر الإسـلام لم يخرج إلى المجاز كثيراً، وكان يحاول قدر الإمكان التحلل من أعراف الجاهلية فإننا لا نكاد نجد لذلك أثراً في شـــعر هذه المرحلة، بخلاف الحال في العصر التالي الذي رجعت فيه الأعراف البدوية القديمة لتنتشر من جديد في بادية العرب.

هجاء الانصياع للمرأة في العصر الأموي:

عصـر بني أمية مزج بين بداوة الصحابة وعفَّتهم واستقامتهم، وبين تهتك المولَّدين وانحلالهم، فكان عصـر البرزخ، الذي شهد مفارقات مدهشة تسير في خطوط متوازية لا تلتقي..

بيد أن جذوة الجهاد لم تخبُ فيه، ولم يتحوّل الجيش آنذاك إلى مؤسّسة رسميّة بالكامل كما هو الحال في عصر بني العباس، فإذا دعا داعي النفير لبّى كل من قدر على الدفع. فلم تعتد الرجال بعد على الاعتكاف في الخدور بين الجواري والولد.

كما أن الجواري كانت للخدمة أو لطلب الولد، دون متعة الملوك، فكانت الزوجات من الحرائرِ غالباً، ومن ذوات الشرفِ العالي، وأخصُّ هنا زوجاتِ الملوك والسّادة، فإن تحكَّمت المرأة بشيء من شؤون الدولة فهي تَحكُم بسطوة أبيها أو أخيها، ولكن يمنعها شرفها من ذلك... هذه الظاهرة التي ستختفي تدريجيا في العصر العباسي حتى تصبح الزَّوجات

من الجواري كلهن باستثناءات قليلة جداً حتى إذا وصلنا العصر المملوكي والعثماني غاب مفهوم الزوجة كلياً.. وحلَّ مكانه الإماء والحرملك وأمُّ الولد..

وإن كان العثمانيون قصدوا من ذلك عدم تحكيم النساء في شؤون القصر بسطوة النسب فقد حصل العكس تماماً إذ تحكَّمت الجواري في شؤون الأمم لكونهن محظيَّات الخليفة، فنجد الدولة بعد القانوني آل حكمها إلى المحظيات حيث ظهر مصطلح السلطانة الأم بدءا من السلطانة عائشة زوجة سليم الأول...

أما العصر الأموي الأول فقد انقسمت العرب مذاهب شتى، حيث نجد شعراء قضاعة وعذرة وعامر وحتى قريش تعلي شأن المرأة المحبوبة وتحكِّمها في الأعناق، حتى أن كل معشوقات العرب عشنَ في هذه المرحلة التي لم تتجاوز ثلاثين عاماً، كليلى وعزّة وريّا وبثينة وسكينة وعائشة بنت طلحة ولبنى والأخيليّة وهند والرّباب وعفراء والنّوار ...

بينما ظل عرف البداوة سائراً في التشنيع على الرجل الذي يطيع امرأة أو يتحبّب لها وإن كانت زوجته وحتى إن كان الخليفة... وغالباً ما يقذعون في الهجاء في هذا المضمار. وإن أشدّ من ناله الهجاء بهذه الصفّة هو مروان بن الحكم، الخليفة الأموي الرَّابع، وقد وصفه أخوه عبد الرحمن بن الحكم- وكان شاعراً ماجناً ولكنه محسن ومجيد ولا يرى رأي مروان- {من الطويل}:[18]

فَوَ اللهِ مَا أدري وإنّي لسائلٌ حليلةَ مضروبِ القَفا كيفَ

لحا الله قوماً أمَّروا خيطَ باطلٍ يَصنعُ على النّاسِ يُعطي ما يشاءُ ويمنعُ

قال عبد الرحمن بن الحكم هذه الأبيات غداة وَلِيَ مروان ولاية المدينة من معاوية، فمن عميق السخرية والمفارقة في هذه الأبيات أن الشاعر يقول أنه لن يسأل مروان عمّا يصنع، بل سيسأل زوجته، فهي من تشير عليه، ولم ينس بن الحكم أن يُتبِع هذه المفارقة بشتيمة بذيئة لأخيه، حيث وصفه بـ (مضروب القفا) إذ لايقبل هذه الإهانة إلا العبيد والغلمان، فضلاً عن والي المدينة. ولم يقتصر هجاء عبدالرحمن أخاه مروان على هذه الأبيات بل كان كثيراً ما يهجوه. ومن قوله فيه{من الطويل}[19]:

وهبتُ نصيبي فيكَ يا مروَ كلَّه لعمروٍ ومروانِ الطويلِ وخالدِ

فكلُّ ابنِ أمٍّ زائدٌ غير ناقصٍ وأنت ابن أمٍّ ناقصٌ غير زائدِ

فالشاعر لم يخاطب أخاه باسم الكامل بل نقص منه فخاطبه يا (مروَ) بدل يا (مروان) ومروة من أسماء الجواري، وتعمد هذا الخطاب ليصفه بالناقص، الذي يتبع أمر زوجته. ويبدو أن هذه الصفة صارت لازمة لمروان بن الحكم يهجوه بها خصومه، ومن ذلك ما قال صعلوك بني تميم مالك بن الريب يهجو مروان نفسه {من الطويل}[20]:

لَعَمرُكَ ما مَروانُ يَقضـي أُمورَنا وَلَكِنَّ ما يَقضـي لَنا بِنتُ جَعفَرِ

فَيـا لَيتَهـا كـانَـت عَلَينـا أَميرَةً وَليتَـكَ يا مَروانُ أَمسَـيتَ ذا (حرِ)

يقبّح مالكٌ على مروان استشارة زوجته، لاجئاً إلى ما تلجأ إليه العرب من قبيح الألفاظ في هذه الحال، فيقترح على مروان أن ينصِّبها أميرةً مكانه، وأن يذهب فيختصي أو يتخذ له فرْجَ امرأة. مالك بن الريب أعرابي حقيقي، ترفض شهامته أن يُقضى له في أموره من الرجال فضلاً عن النساء، لذا حمل سيفه ورمحه واتخذ التصعلك طريقاً، إلى أن منَّ الله عليه وتاب والتحق بركب الجهاد مع عمرو بن عثمان بن عفان، وهو القائل في ذلك {من الطويل}[21]:

وَمـا أَنا كَـالعيرِ المقيمِ لأَهلِـهِ عَلى القَيدِ في بَحبوحَةِ الضَيمِ يَرتَعُ

يشبه مالك في هذا البيت الرجل المقيم بين أهله كالحمار الذي لايرتاح إلا بالقيد في الإسطبل. هذا المعنى على ما يبدو كان شائعاً في العصر الأموي كثيراً، حيث نجده تكرر أيضاً عند الفرزدق، حيث أجبر بهجائه عبدالله بن الزبير، خليفة المسلمين في مكّة، أن يرضخ لطلبه بتسليم زوجته النوار إليه، وأصل الحكاية أن عبدالله بن الزبير لم يقبل وساطة ابنه حمزة بن عبدالله بن الزبير في تسليم النوار حين التجأت إليه فراراً من زوجها الفرزدق، وقبل عبدالله بن الزبير شفاعة زوجته خولة بنت منظور بن زبان الفزارية، التي خبّأت النوار في حجرتها، فقال الفرزدق في ذلك {من البسيط}[22]:

أَمَّا بَنُوهُ فلم تُقبَل شـفاعتُهم وشُـفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بنِ زَبَّانَا

لَيْسَ الشَّـفِيعُ الـذي يأْتيـكَ مُؤْتَزراً مِثْـلَ الشَّـفيعِ الـذي يَأتيـكَ عُرْيَانَا

ورغم أن خولة بنت منظور كانت بنت سيد فزارة لكن ذلك لم يمنع الفرزدق أن يسدّد هذه الطعنة النجلاء لعبدالله بن الزبير، الذي اضطرَّ أخيراً أن يجيب الفرزدق إلى ما أراد حتى لا يلتصق به هذا العار. ورغم ادّعاء الفرزدق في شـعر مراراً بأنه يحب نواراً إلا أنه كثيراً ما كان فظاً غليظاً معها حيث فضَّـل عليها أعرابية تقيم فى خباء، وهى المرأة الحضرية المنعّمة.. في قوله {من الطويل}[23]:

لعَمري لأعرابيَّـة فى مِظَلَّـةٍ تطلُّ بأعلى بيتها الريحُ تخفِقُ

كـأمِّ غَـزالٍ أو كـدرَّةِ غـائـصٍ إذا ما بدتْ مثل الغمامةِ تشـرِقُ

أحبُّ إلينا من ضـنـاكِ ضِـفِنَّةٍ إذا رُفعـتْ عنـهـا المراوح تعرَقُ

وما كان هجاء الفرزدق لتنعم زوجته النوار التي اعتادت أن تقف الجواري تروح على رأسـها لهيب الحر إلا محاولة

للتملص من وصـــمه بالخوف من زوجته، وهو الذي عبر عن توله بها. أو لعل ذلك ردة فعل تجاه ولده (لبَطَة) بن الفرزدق، الذي عصى أباه في طاعة امرأته، وكانت زوجته تحرِّشه على أبيه الفرزدق، ويقول في ذلك {من الطويل}[24]:

أإن أرعشتْ كفّا أبيك وأصبحتْ ... يداكَ يدي ليثٍ فإنك حاربُه

إذا غلبَ ابنٌ بالشَّبابِ أباً له ... كبيراً فإن الله لا بدَّ غالبُهْ

رأيتُ تباشيرَ العقوق هي التي ... من ابن امرئ ألّا يزال يغالبُهْ

ولما رآني قد كبِرتُ وأنَّه ... أخو الحيّ واستغنى عن المسح شاربهْ

أصاخَ لعريان النجيّ وإنَّه ... لأزورُ عن بعض المقالةِ جانبُهْ

\

وإن أردنا أن تكتمل الصـــورة المجتزئة هنا، فلا بد أن نذكر أن كل هؤلاء الذين اســترجلوا يوماً رجعوا في نهاية المطاف يبكون لمن أحببن حباً جمّاً، وقد ندموا (ندامة الكسـعي لما...)[25]، فهذا قيس بن ذريح، مجنون لبنى، يتحسـر على تطليقها بعد ساعة استرجال عاب فيها أبوه عليه تولهّه بامرأة {من الوافر}[26]:

فواكبِدي على تسـريحِ لُبنى ... فكانَ فراقُ لبنى كالخداعِ

على أمرٍ وليسَ بمستطاعِ

فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسي ... تبيَّن غبنُه بعد البياعِ

كمغبونٍ يعضُّ على يديه \

وكذلك ابن الريب حين وقعت الواقعة وأزفت الساعة وهو لديغ مضرج بمرو بعيد عن ديار نجد، وبدأ يعدد أحبابه وقع بين المتردد في الاعتراف بلوعته على زوجته وبين كبر الرجولة في حناياه، فاكتفى بالتلميح إليها حين عدد القرابات.. وإن كان تلميحاً يشي بأنها تجلس على عرش فؤاده حين قال {من الطويل}[27]:

وَبِالرَّملِ مِنّا نسوَةٌ لَو شَهِدنَني ... بَكَينَ وَفَدَّينَ الطَبيبَ المداوِيا

فَمِنهُنَّ أُمّي وَابِنَتايَ وَخالَتي ... وَباكِيَةٌ أُخرى تَهيجُ البَواكِيا

الأحكام الصارمة تجاه الرجل الذي يطلق يد زوجته لتتصرف في الأمور انتقلت مع الأمويين إلى بلاد الأندلس أيضاً رغم تباعد الحقب والمنازل، لاسيما حين بات للجواري حظوة في قصور الخلفاء، وباتت أمهات الولد يدبرن شؤون الدولة ويولين ويعزلن، وهذه صبح البشكنجية، جارية الخليفة الحكم المستنصر، وأم ولده الخليفة هشام المؤيد، تطلق يد الشاب الطامح محمد بن أبي عامر، الحاجب المنصور ليدبر شؤون الحكم، لكن أعداء المنصور الذين كانوا يتربّصون به

الدوائر حين غلب سعده، بدؤوا يهمسون في عرض الخليفة بشأن العلاقة التي تجمع البشكنجية بهذا الشاب، همساً وصل حد القذف بألفاظه الفجة المباشرة، ومن تلك الأشعار ما رواه صاحب نفح الطيب {من السريع}(28):

اقتربَ الوعــدُ وحــانَ الهلاكْ   وكُلُّ ما تحذرهُ قد أتاكْ

خليفــةٌ يلعــبُ في مكتــبٍ   وأمّه حبلى وقاضٍ يُنـــــــــ..

ويضيف المقري معلقاً على هذه الأبيات: "يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً، وأمّه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمون بها المنصور، وذلك بهتان وزور، وأفظع منه رميهم القاضي بالفجور"(29).

الانصياع للمرأة في الشعر العباسي:

تعددت أسباب ضعف الخلافة العباسية، لاسيما بعدما اشتغل فيها الفرس والترك، وتناهبتها الدول والممالك الطامحة، ولكن لا شك أن انشغال الخلفاء العباسيين بحياة الترف واللهو، وتركهم الميدان لعبث نساء القصر دور كبير في ذلك، حتى تحكمن بمآلات الحكم كما يحلو لهن، وقدمن رجالهن من قومهن على تنوع أعراقهن بين الفرس والترك مما نتج عنه تصدع في كيان الدولة. حتى أن المؤرخين يميلون دائماً إلى الجزم بأن النساء متى أمسكن زمام الحكم أفسدنه بالكلية، لأنهن ليس لديهن تلك الخبرة والحنكة السياسية التي يملكها الرجال، كما أنهن في أصل تكوينهن لا يملكن القدرات العقلية والفكرية اللازمة للقيام بمثل تلك المهمة الكبرى.

وجدت النساء في هذه المرحلة الفرصة سانحة بعد ضعف الخلائف واشتغالهم بحرائق الفتن التي تمور في قصورهم، فانتهزن الفرصة لتحقيق مطامعهن ووجهن دفة القيادة إلى حيث تسوقهن أطماعهن، وقد استمر هذا الحال إلى العصر المملوكي حتى رأينا شجرة الدرِّ تتربع على عرش الدولة ثمانين يوماً، ثم رأيناهن في العصر العثماني يحملن لقب السلطانة، وتزيد هذه السطوة إذا ألحق باللقب مسمى السلطانة الأم، لا سيما أن معظم أولئك النساء اللاتي ينسب إليهن التسبب في سقوط هذه الدول المتعاقبة لم يكنَّ من سيدات النساء، وإنما من الجواري والمحظيّات اللواتي ساقهن الغزو والإسار إلى بلاط السلاطين وموطن الحل والعقد، ومن هنا نحاول فهم التعميم الجائر الذي أطلقه الخليفة العباسي المأمون في قوله: "النساء شر كلهنَّ، وشر ما فيهنَّ قلة الاستغناء عنهنَّ"(30).

حتى وإن كان العصر العباسي عصر الشعراء المولدين، الذي تركوا الوفاء للمحبوبة الواحدة وراحوا يتغزلون بالجواري والراقصات، فإننا نجد الشاعر العربي يأنف أن يوصف بأنه عشير النساء، أو كثير الملازمة لهن، وهذا بشار بن برد ينفي عن نفسه تلك الخُلة بقوله {من الخفيف}(31):

من يقم في السَّـــواد واليدِ   ـــــــرام زيراً فـإنَّني غيْرُ زِيرِ

والإغـــــــــــــــــــــ   ـــــــعِ خَلاَ أهْلُـهُ لِبيْن شَـــطِيرِ

ليس منّي المقـامُ أبكي على الرَّبـ عــن ربابٍ وزيــنــبٍ وقــذورِ
إنَّ في نـدوةِ المـلوك لشـــغـلاً ــــــوِ عُيُوناً مَكْسُــورةً بفُتُورِ
مُشْـــرِقاتُ الْوُجُوهِ يَسْـــحَبْنَ لِلَّهْ ـب وأبـرقـن كـالسَّـــرابِ الغـرورِ
حَـافِظَـاتٍ على الأَخِلَّـةِ مـا طـا ــــــدِ مَشُـــوباً بِمَـاءِ مُزْنٍ نَمِيرِ
يتســـاقينَ بالمضــاحكِ كالشَّـــهـ بحـديـثٍ لـذٍّ ودهـرٍ قصـــيرِ
وثـقـال الأعـجـاز قـطَّـعن قـلـبي

يأنف بشار من وصفه بزير النساء، والزير يجمعهن حوله معاً، أو يكثر الترداد عليهن ويُرى مع غير واحدة منهن. رفضُ بشار لهذه الوصمة رغم أنه من الجيل الذي رعى انحلال الشعر العربي ومجونه، يتحدّر من حقيقة أن الزير منبوذ في مجتمع الرجال، إذ يألف أن يقوم بحركات الإغواء وأساليب إيقاع الصيد في الشرك، وتخفت عنده الشجاعة ويهتم بمظهره أكثر من اهتمام العذارى بأجسادهن. وإننا لنجد هذا الوصف صريحاً في هجاء المتنبي لكافور الإخشيدي في قصيدته الشهيرة (عيد بأية حالة عدت يا عيد) في الأبيات التي أسقطها مصنّف ديوان المتنبي من القصيدة، حيث يقول فيها {من البسيط}[(32)]:

إنَّ امْرَأً أَمَـةٌ حُبْلَى تُـدَبِّرُهُ لَمُسْتَضَامٌ سَخِينُ الْعَيْنِ مَفْئُود
وَعِنْدَهَا لَذَّ طَعْمَ الْمَوْتِ شَـــارِبُهُ إنَّ الْمَنِيَّـةَ عِنْـدَ الـذُّلِّ قِنْـدِيـدُ

فمن هذه الأوصاف الساخرة التي أطلقها المتنبي على كافور الذي تدبر شأنه امرأة حبلى، أنه مستضام مهضوم الحق، وهذه شماتة، ووصف له بالجبان ضعيف الفؤاد، ولعله قصد بالأمة الحبلى كافور نفسه لأنه خصيّ، وجعله حبلى لعظم بطنه. لذا يستسهل أبو الطيب المتنبي الموت على أن يقع في حال مثل هذه الحال، يؤول فيها أمره إلى أمة حبلى. والحقيقة أن المتنبي لجأ مراراً إلى هذا الأسلوب من الهجاء، لاسيما في قصيدته الشهيرة (لهوى النفوسِ سريرة لا تعلم) التي هجا فيها والي طرابلس ابن كيغلغ، حين حبسه في لبنان وحاول إجباره على أن يقول فيه مديحاً، وقطع عليه طريقه، فرد عليه المتنبي بهذه القصيدة الفاضحة التي يقول فيها {من الكامل}[(33)]:

الظُلمُ مِن شِـــيَمِ النُفوسِ فَإِن تَجِــــــــــــــــــد ذا عِفَّـةٍ فَلِعِلَّـةٍ لا يَظلِمُ
مـا بَينَ رِجلَيهـا الطَريقُ الأَعظَمُ
يَحمي اِبنَ كَيغَلَغَ الطَريقَ وَعِرسُــــهُ إِنَّ المـنِيَّ بِحَـلـقَـتَـيـهـا خِضــــرِمُ
أَقِمِ المِســـالِحَ فَوقَ شُـــفرِ سُــكَينَةٍ وَاِســـتُر أَباكَ فَإِنَّ أَصـــلَكَ مُظلِمُ

وَارفُق بِنَفسِـــكَ إِنَّ خَلقَكَ ناقِصٌ وَرِضـــاكَ فَيشَـــلَةٌ وَرَبُّـكَ دِرهَمُ
وَغِناكَ مَســـأَلَةٌ وَطَيشُـــكَ نَفخَةٌ تَقوى عَلى كَمَرِ العَبيـدِ وَتُقـدِمُ
وَاِحـذَر مُـنـاواةَ الـرِجـالِ فَـإِنَّمـا

وهذه الأبيات سقطت من ديوان المتنبي أيضاً لشدة فحشها على ما يبدو، ولأن المتنبي كان يعرف عِظم هذا الهجاء المرّ فما إن ذاب الثلج وخف عن لبنان حتى خرج كأنه يسيّر فرسه وسار إلى دمشق فأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً فأعجزهم ولم يلحقوه.

وهكذا نستطيع أن نجزم أن الحال لم يتغير في العصر العباسي المتأخر أيضاً تجاه من يصغي لامرأته رغم اختلاط الدولة وكثرة الأعراق التي تخللتها.

خاتمة:

الشعر ديوان العرب، يعكس قيمهم وأعرافهم وأمزجتهم في مختلف مراحل التاريخ العربي، لاسيما مفاهيم الشرف والكرامة والجبروت، الذي يتخذ من الرجل الذي يُطيع زوجته موضع للسخرية و ازدراء، بدءاً من عصر الصعاليك الأوائل إلى عصر أبي الطيب المتنبي، ورغم أن الإسلام لم ينهَ نهياً صريحاً عن مشاورة النساء، بل جعل ذلك حتماً لازماً في مواضع شتى، إلا أن عرف البداوة العربية لم يستسغ فكرة استماع الرجل للمرأة والأخذ برأيها، حيث عكست القصائد، لا سيما تلك التي قالها شعر البداوة من بني تميم في العصر الأموي، الوضعَ الحرج للرجل الذي يخضع لزوجته في مجتمعه وبيئته، وغالباً ما ارتبطت هذه القصائد التي تقبّح على الرجل الانصياع للمرأة بألفاظ بذيئة تحاول استفزاز كرامة الرجل وجبروته، حتى باتت هذه القصائد ذات طابع ساخر وهزلي، و ظلت القيم الاجتماعية تعتبر طاعة المرأة لزوجها هو السياق الطبيعي للحياة، لذا تمثل هذه القصائد مرآة لواقع المجتمع العربي وقيمه وتفضيلاته في تلك العصور الخالية، وتجعلنا نفهم التاريخ الاجتماعي لأمتنا بصورة أفضل.

المصادر و المراجع

(1) ديوان أبي تمام، 183/3.

(2)2 بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبدالبر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص183.

(3) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت (1431هـ) 273/2.

(4) بهجة المجالس، 184.

(5) جواهر الأدب، أحمد بن إبراهيم الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، 281/2.

(6) جبّأ وأكهى: أي جبان ضعيف، انظر لسان العرب لابن منظور، فصل الكاف، 234/15.

(7) خرق: بنفس المعنى تدل على الضعف والجبن، والهيق: ذكر النعام، والمكاء: ضرب من الطيور.

(8) الدارية، والداري: المقيم في داره لا يبرحها. المتغزّل: المتفرّغ لمغازلة النساء.

(9) سورة يوسف، الآية 23.

(10) سورة الأحزاب، الآية 33.

(11) سورة الطلاق، الآية 1.

(12) جزء من أحاديث ابن المقير عن شيوخه، ابن المقير النجار، تحقيق خلاف محمود، دار الكتب العلمية، بيروت (2002)، حديث رقم: 1327، ص62

(13) سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2 (1955)، 423/2

(14) الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ لابن عبدالبر، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت (1992) 3 /1876.

(15) أُسد الغابة في معرفة الصحابة؛ ابن الأثير، دار ابن حزم، بيروت (2012) 181/7.

(16) المصدر نفسه.

(17) البو: الحُوار، وَقِيلَ: جِلْدُهُ يُحْشَى تِبْناً أَو ثُماماً أَو حَشِيشًا لتَعْطِف عَلَيْهِ النَّاقَةُ إِذَا مَاتَ وَلَدُهَا، ثُمَّ يُقَرَّبُ إِلَى أُم الْفَصِيلِ لتَرْأَمَهُ فتَدِرَّ عَلَيْهِ، انظر: لسان العرب، فصل الباء، 100/14.

(18) أسد الغابة، 139/5.

(19) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 1388/3.

(20) حماسة القرشي، تحقيق خير الدين قبلاوي، وزارة الثقافة، دمشق (1995)، ص 382.

(21) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 309/22.

(22) شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد حور ووليد خالص، المجمع الثقافي أبو ظبي، ط2 (1988)، 924/3.

(23) المصدر نفسه، 926/3.

(24) أدب الخواص، أبو القاسم الوزير المغربي، أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض (1980)، ص91.

(25) إشارة لقول الفرزدق:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نُوَارُ

(26) العقد الفريد لابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، بيروت (1404هـ)، 136/7.

(27) التذكرة الحمدونية، لابن حمدون البغدادي، دار صادر، بيروت (1417هـ)، 129/8.

(28) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت (1968) 502/1.

(29) المرجع نفسه.

(30) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبدالبر، ص183.

(31) ديوان بشار بن برد، دار الكتب العلمية، بيروت (2010) ص471.

(32) معجز أحمد، أبو العلاء المعري، ص409.

(33) شرح ديوان المتنبي، للواحدي، ص173.